تأملات فى مسرحية روسية

هل يشبع الشعب الروسى من التغنى بتلك الحرب التى شنها نابليون على روسيا حين اجتاح أرضها ودخل عاصمتها القديمة ثم ارتد مدحوراً ؟ لا أظن . إن انتصار الروس حتى فى هذه الحرب الأخيرة لن ينسيهم ذلك الانتصار الماضى . ووقائع تلك الحرب ، والدفاع أمام الإمبراطور الفرنسى هو الذى كان يبعث الآمال فى قلب الروس أمام طاغية الألمان حين لم يكد يبقى شىء من أمل . لذلك أخذ الكتاب والشعراء وواضعو المسرحيات والقصص فى بلاد السوفييت يعالجون وقائع تلك الحرب ويرسمون لأبطالها صوراً ، كى يقووا من عزيمة الشعب الروسى فى أيام المحنة ويعلموه معنى الشجاعة والتضحية حتى أمام الخطر الذى لايكاد يدفع .

هذا القسم من الأدب الروسى لم يعرف كثيراً حتى الآن ، ولم ينقل إلى اللغات الأجنبية . فليس من السهل على الأجنبى أن يوازن بين كاتب وكاتب ، وأن يدرس هذا الأدب دراسة فنية . على أنه صادف أن اطلعت أخيراً على قصة مسرحية للكاتب قسطنطين ترنيوف ، وقد توفى أخيراً عن ست وستين سنة . كان ناظر مدرسة ، نشر قصصاً ومقالات عدة قبل الحكم السوفييتى ، ولكنه لم يشتهر ولم يذع صيته فينقطع للتأليف إلا فى ظل نظام السوفييت ؛ إذ مثلت له مسرحية « ليوبوف ياروفايا » التى تجرى حوادثها فى الحرب الأهلية ، فأعجب بها الناس ومنح المؤلف جائزة ستالين ، ومثلت الرواية فى جميع المسارح فى أنحاء روسيا فى السنوات العشرين الأخيرة . وتابع هذا النجاح بعدة روايات وطدت من شهرته وجعلته من أوائل المؤلفين المسرحيين .

أما الرواية التى قرأتها فهى عن النضال بين نابليون وروسيا ، واسمها « قائد عظيم » . وليس القائد المشار إليه هو نابليون وانما هو غريمه « كوتوسوف » قائد الجيوش الروسية فى ذلك الوقت .

ما هى مزية كوتوسوف فى هذه القصة تُرى عالم الحقيقة أيضاً ؟ إنه يقابل عدوه العظيم الذى حكم أوربا بأسرها ولم يبق أمامه إلا أن يخضع روسيا لإرادته ، يقابله ولدى أحدهما كل معدات النصر من آلات الهلاك المعروفة فى ذلك الوقت وهو مبتدع النظريات الجديدة فى فن الحرب والآخر أقل عدة واستعداداً . ويقوم هذا النضال العنيف يتقدم فيه الإمبراطور الفرنسى فى الأرض الروسية كعادته فى كل أرض غزاها ، والقائد الروسى ينثنى ويتقهقر دون أن يسلم ، وهو قوى الثقة فى أن الزمن سيساعده ، أو كما يقول فى هذه الرواية : « إن الزمن يعمل من أجلنا إذا عملنا من أجله ، والزمن أعقل من الجميع » .

تبدأ حوادث هذه الرواية فى ساحة بورودينو حيث جرت تلك الموقعة الدموية التى انتصر فيها نابليون واستطاع بعدها أن يتقدم إلى موسكو ، ولكنه انتصار كلفه كثيراً ؛ فقد وقف كوتوسوف فى طريق الفرنسيين وهو عالم أنه سيضطر إلى التقهقر ، ولكنه عزم أن يثبت بقدر ما يستطيع ، وأن ينزل بالعدو أكبر خسارة . فهو يقسم جنوده فى الموقعة بحيث يتحقق له هذا الغرض ، ويجادله قواده بأن هذا التقسيم لا يقوم على أساس من فن الحرب ، ولكنه لا يعبأ بأقوالهم ، ويشرح لبعض المقربين إليه منهم خطته فى إدارة الموقعة . وهكذا تجرى هذه الموقعة الدامية حسب خطة القائد الروسى وما رمى إليه من غرض ، ويتقهقر الجيش الروسى بعدها ، ويترك الميدان للإمبراطور الفرنسى ، ولكنه نصر ربحه الفرنسى بثمن غال ؛ إذ خسر عدداً هائلا من رجاله دون أن يستطيع سحق الجيش الروسى .

كان كوتوسوف بالرغم من نقد القواد المساعدين له ومنهم بعض الانجليز والألمان الذين عرفوا الفن الحربى فى غرب أوربا ، يفضل هذا التقهقر ويرحب به ، إذ أنه كان على علم بشعور الجنود الروس وشعور الشعب نحو الفرنسيين . وقد علق على هذا الشعور آمالا كبيرة ، وأرسل الرسل لتنظيم العصابات التى تعمل خلف الجيوش الفرنسية وأمامهم ، وتبث روح المقاومة فى قلوب الشعب ، وهى موجودة ولا ينقصها غير التنظيم .

لقد فتح الطريق إلى موسكو أمام نابليون بعد موقعة بورودينو ، فدخلها دخول الظافر ، وظن أنه بلغ نهاية متاعبه ، وخيل إليه أنه بالاستيلاء على تلك العاصمة القديمة سيضع حدًّا لهذا القتال ، فيسرع القائد أو يسرع القيصر

بطلب الصلح . وكيف لا يعتقد ذلك وهو يسكن الآن قصر الكرملين مقر القياصرة الروس وموئلهم ! على أن أحداً لم يتقدم إليه .

ظل نابليون فى موسكو خمسة أسابيع ، رابضاً كالحيوان الذى يلعق جراحه . وقد رأى إذ لم يجئه أحد أن يتقدم هو بعرض الصلح ، اذ أن ما ناله من نصر ظاهر بدخول موسكو يجعل طلبه للصلح مجرد رغبة فى إنهاء القتال لا دليلا على ضعفه ، على أنه لم يتلق جواباً لعرضه .

كان نابليون يظن أنه إذا ما وجد موئلا فى موسكو لجنوده سيدفع عن جيشه على الأقل غائلة الجوع ؛ إذ هو فى مدينة كبيرة تأتى إليها الأطعمة من كل جانب . ولكن عند ما دخل تلك المدينة هرب أهلها ولم يبق منهم إلا عدد قليل ، وأقفلت المتاجر وعدل الفلاحون عن الذهاب للمدينة وبيع منتجاتهم فيها ، وحاول الفرنسيون عبثاً أن يجتذبوا هؤلاء الفلاحين ، ولكن الفلاحين يعدلون عن دخول المدينة ولا يجذبهم ميلهم الطبيعى للكسب وهم عالمون بحاجة الجيش المحتل إلى الطعام . ولم تلبث الحالة أن ازدادت سوءاً ، فالحرائق تشب فجأة هنا وهنالك تأتى على الدور وعلى القليل الباقى من أقوات ، وليست هنالك وسائل لإطفاء هذه الحرائق . ووجد نابليون أن مقامه أصبح مستحيلا ، فتقرر لديه أن لا بد من الرحيل .

أعلن نابليون أنه سيترك المدينة إذ هو مضطر للعودة بجيشه إلى سمولنسك حيث يجد مأوى أصلح لمقابلة شتاء روسيا وبرده . وبدأ الجيش فى التراجع . ولم يكن كوتوسوف ينتظر غير هذه الفرصة ، فجنوده تهاجم الجيوش الفرنسية المتراجعة ، وعصابات الأهالى تضايقهم بسائر الوسائل ، والقوزاق لا يذيقونهم الراحة ، فهم ينقضّون عليهم فجأة ، ثم يختفون فى الغابات ، والبرد والجوع يلاحقان هذا الجيش فيسقط الجنود الفرنسيون موتى منهما . وهكذا لم يرتد نابليون بجيشه إلى سمولنسك بل ظل يتقهقر إلى الحدود مدحوراً وذاب هذا الجيش العظيم ولم يعد إلا فلولا . وكانت تلك الحملة بالنسبة لنابليون بداءة النهاية .

لقد أتقن ترنيوف مؤلف هذه القصة المسرحية تصوير الأشخاص لا سيما بطله كوتوسوف ، ولكنه كان يرمى إلى غرض قريب هو الدعاية وإثارة الحماسة بين مواطنيه فى محنتهم الأخيرة . لذلك نراه قد رسم صورة كريهة لقائد

من الألمان مع أنه يحارب فى الجيش الروسى ، ورسم صورة محبوبة لقائد إنجليزى يحارب فى ذلك الجيش ، أما نابليون فصوره قزماً حقيراً إذ هو العدو الأكبر .

*

إن أردت أن تقرأ قصة هذا النضال المخيف ، وإن أردت أن ترى صورة منقنة لكوتوسوف ونابليون فلا تحاول ذلك عند هذا الكاتب ، ولا عند غيره من كتاب السوفييت الكثيرين الذين عالجوا هذا الموضوع ، بل اقصد كاتباً واحداً هو تلستوى . لا أعنى ألكسى تلستوى الكاتب السوفييتى الذى مات قريباً وهو من خيارهم ، وإنما أعنى قريبه الكونت ليو تلستوى الروائى والفيلسوف العبقرى الذى مات فى سنة ١٩١٠ وهو ذلك الكاتب العظيم الذى قال عنه « هاول » الناقد الأمريكى : « لقد صرت أنظر إلى الأشياء بعد معرفتى بتلستوى غير نظرتى إليها من قبل » . وليس هذا القول بعيداً عن الحقيقة ، فمنذا الذى لم يتأثر بكتاب من كتبه ! ومنذا الذى لم تترك فى نفسه أثراً تلك الملحمة النثرية ، التى تدور حوادثها حول نابليون وهى رواية الحرب والسلم ؟ فى تلك الرواية تجد دراسة عقل جبار لحرب قام بها جبابرة . فانظر مثلا إلى نبذ من قوله فى موقعة بورودينو :

« فى موقعة بورودينو لم يطلق نابليون الرصاص على أحد ولم يقتل أحداً ، كل هذا قام به الجنود ، فليس هو الذى قام بقتل الناس إذن . . .

فالجنود الفرنسيون ذهبوا ليقتلوا ويُقتلوا فى معركة بورودينو لا بسبب أوامر نابليون ، بل بمحض إرادتهم . وهذه الجيوش المؤلفة من فرنسيين وإيطاليين وألمان وبولنديين ، وهم جائعون ومهلهلو الثياب من تلك الحملة ، شعروا أمام جيش سد الطريق أمامهم إلى موسكو أن الخمر قد صبت ويجب أن تشرب الكأس ولو تحوّل نابليون من مقاتلة الروس لذهبوا إليه وقاتلوه ، فذلك أمر محتوم .

وليس نابليون هو الذى أدار دفة الموقعة إذ لم ينفذ أمر من أوامره ، وكان فى أثناء الموقعة لا يعرف ما يدور أمامه . . .

يؤكد بعض الكتاب أن برداً أصابه كان سببا فى أنه لم يحسن رسم خطط

المعركة كما كان يفعل فى المعارك السابقة ، وأن أوامره أثناء الموقعة لم تكن موفقة كما كانت فى الظروف السابقة . وهذا القول لا يقوم على أساس .

فإن الخطط لم تكن أسوأ مما سبقها بل هى خير منها ولكن هذه الخطط والأوامر تبدو سيئة لأن معركة بورودينو هى أولى المعارك التى لم ينتصر نابليون فيها . .

لقد قام نابليون بواجبه بوصفه ممثلا للسلطة كما كان يقوم به دائماً بل خيراً مما قام به فى معارك أخرى ، فلم يأت بما يضر بسير القتال وكان يميل لأصوب الآراء ، ولم يسبب اضطرابا ، ولم يناقض نفسه ، ولم يستول عليه الذعر ، ولم يفر من ميدان القتال ولكنه فى حكمة كبيرة وفى هدوء المجرب للحروب ، وفى وقار ، قام بدوره وهو مظهر الذى يقود » .

ومن الطبيعى أن يكون تلستوى فخوراً بهذه الموقعة التى رأى فيها الروس بداءة نصرهم على الإمبراطور الفرنسى . ومن الطبيعى أن تكون صورته لكوتوسوف من أحب الصور . ولكن اقرأ بحوثه وتعليلاته بين حوادث قصته تجد فيها تحليلا عميقاً ، جديراً بذهن عبقرى كبير ؛ فهو بعيد عن أن يصور الإمبراطور الفرنسى قزماً حقيراً ، وهو يحاول أن يخترق حجب الحقيقة فى تعليل الأشياء : « يقول الكثير من المؤرخين إن الفرنسيين أخطأهم النصر فى معركة بوردوينو لأن نابليون أصابه برد ، ولو أنه لم يصب بهذا البرد ، لكانت أوامره قبل المعركة وأثناءها ، من أظهر جوانب عبقريته ، ولقضى على روسيا ، وتغير وجه الأرض . فالروس الذين يظنون أن روسيا تكونت بإرادة رجل هو بطرس الأكبر ، وأن فرنسا انتقلت من جمهورية إلى إمبراطورية بإرادة رجل واحد هو نابليون ، يرون مثل هذا الفرض القائل بأن روسيا ظلت قوية لأن نابليون أصابه برد شديد فى ٢٤ أغسطس ، هو فرض معقول ومحتوم .

لو أن خوض معركة بوردوينو أو الامتناع عنها كان متوقفا على إرادة نابليون ولو أن هذا الإجراء أو ذاك كان متوقفا على إرادته ، لكان من الواضح أن البرد الذى يؤثر فى مظهر إرادته قد ينقذ روسيا ، وأن الخادم الذى أهمل فى إحضار الحذاء الذى يحول دون تسرب الماء إلى قدميه فى ٢٤ أغسطس كان منقذ روسيا » .

تذكرنى هذه المسرحية ، وتذكرنى هذه القصة الخالدة ، بكتاب ثالث كتبه أديب عظيم وشاعر كبير فى بلد آخر كان أهم البلاد المناهضة لنابليون ، أعنى توماس هاردى الأديب الإنجليزى الذى نظم ملحمة فى قالب تمثيلى عن نابليون وحروبه سماها « الطاحين لإنشاء العروش » . وقد اتخذ هو أيضاً الفكرة القائلة إن نابليون كان لعبة للأقدار ، وأبرز هذه الفكرة جلياً فى ذلك الحوار الذى بدأ به منظومته بين القوى المسيطرة على أعمال البشر . وبعد هذه المقدمة المتشائمة الساخرة لا نستطيع أن ننظر إلى الإمبراطور الفرنسى إلا على أنه ألعوبة تتحرك ومصيرها التحطيم بيد طفل عابث .

لقد كانت نظرية القدر كما شرحها تلستوى فى تفاؤل بل فرح لأن الأقدار كانت فى صف بلاده ، ونظرية القدر كما أوضحها هاردى فى تشاؤمه الساخر ، مخرجاً أدبيًّا من خير ما لجأ إليه الأديبان . ولقد كانت فكرة القدر دائماً من أخصب الآراء فى الأدب ، وفى الفن أيضاً . فالإنسانية الطموح التى لا تقف بنفسها عند حد ، تعرف أن لا حيلة لها أمام القدر ، وعندئذ ترى العطف والرثاء يملأ قلوبنا إذا ماتدخل القدر فى أمور أحد من بنى جنسنا ، ووقف حائلا فى طريقه أو فرض عليه مواقف مزرية . ولقد أخرجت فكرة تسلط القدر آثارا أدبية وفنية رائعة . ويتبادر لذهنى لأول وهلة « أوديب » فى مسرحية سفوكل ، و « لير » فى مسرحية شكسبير ؛ وفى عالم الفن تمثالا الأسير فى « الموثر » والشفقه فى سان پيترو .

العنصر الأساسى فى كل هذه الآثار الأدبية والفنية واحد . لسنا نرتعد لأن أوديب فقأ عينيه ، ولا لأنه كشف عن هذا الأمر أو ذاك ، وإنما تهتز مشاعرنا إذ نرى أنه طريد قدر عات مسيطر ، وأن قوته وسلطانه لايغنيان عنه شيئاً . وذلك هو السر فى العطف على لير الذى سقط فى يد الأقدار بعد أن عصفت به الشيخوخة . وهذا الشعور نفسه هو الذى يؤثر فى نفوسنا كلما رأينا أثراً فنيًّا معبراً عن قوة القدر . فهذان الأسيران اللذان أبدعهما ميكلانجلو ، هذان الشابان القويان الضخما الجثة ، ويدل كل عضو من أعضائهما العارية على جمال القوة ، ولكن مقبضى يديهما منثنيان إلى الخلف كأنهما مغلولان ، وتلك الأم

المنحنية على ولدها المسجى على ركبتيها ، أليس خضوع هؤلاء للأقدار هو الذى يؤثر فى نفوسنا !

وهذا الزعيم الفرنسى الذى صوره بعض الكتاب الروس قزماً ؛ لم يكن فى فترة من فترات حياته أكبر وقعاً فى النفوس وأشد تأثيراً منه وهو فى تلك الجزيرة النائية عاجزاً وبعيداً عن جيوشه ، وعن تلك الأرض التى انتقل بأبنائها من نصر إلى نصر فى ساحات مارنجو وقجرام وأوسترلتز وفى مئات غيرها من مواقع ، ونشعر بعظمة الأسير فى تلك الجزيرة النائية حين تنقل إلى أرض ذلك الوطن تلك الجثة الضئيلة التى أفناها المرض ، وقد استطاعت هذه الجثة أن تأتى بما لم يستطعه نابليون نفسه فى آخر أيامه ، إذ قلبت من نظام فرنسا القائم عندئذ ، ومكنت لقزم حقيـق فى آرائه من الجلوس على العرش لمجرد أنه يمت إلى صاحب الجثة الفانية بالاسم والقرابة .

على أنه ربما كانت للأقدار دخل غير ما قدره الكتاب وغير ما قدره الرجل لنفسه : ماذا كان يريد نابليون بغزواته ؟ المجد لفرنسا ، أو بالأحرى المجد لنفسه ، هكذا يقول بعض المؤرخين .

المجد ! ما هو المجد ؟ إنه كلمة غامضة . ألم يكن أصلح أن نقول إنه آلة سخرت لنشر تلك الأفكار والآراء التى لا بد لها أن تنتشر ! ولكن حروب فرنسا ، أو حروب نابليون إن شئت ، عجلت من نشر هذه المبادئ لا بتغيير نظم الحكم سريعاً ، بل عجلت بنشرها بين الناس بحيث لم تعد هذه النظم صالحة وملائمة . وهذا التأثير فى الناس كان له فى روسيا أثر آخر : لم يؤثر نابليون وجيوشه فى الشعب الروسى بهذا المعنى ؛ فالشعب الروسى لم ير منذ البداءة فى نابليون صديقاً بل عدواً غازياً وطىء الأرض المقدسة . ولكن أرض من ؟ أرض الوطن ، لا أرض القيصر . هذا هو الشعور الذى استيقظ فى روسيا ، فهو شعور بالوطن لم يستيقظ بفعل السوط والقصر كما كان يفعل بطرس الأكبر فى إصلاحاته من قبل ، بل هو شعور استيقظ تحت وطأة أقدام الغازى ، وهو الذى أوجد تلك النهضة الكبيرة فى القرن التاسع عشر ببلاد روسيا فى مختلف المناحى الفكرية من أدبية وفنية . وكان طبيعيًّا ومنطقيًّا أن تنتهى هذه الحركة إلى النهاية المحتومة ، وهى تغيير نظام الحكم القيصرى الذى لم يعد ملائماً لهذه اليقظة .

حسن محمود